﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الرّوم: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مشابهة السّماء والأرض للذَّكر والأنثى

لمّا ذَكَرَ سبحانه الذَّكَرَ والأُنثى، المَخلوقَين مِن الأرْضِ، وكانَتِ السَّماءُ كالذَّكرِ لِلأرْضِ الَّتي خُلِقَ مِنها الإنسانُ، وكان خَلقُهُما مع كونهما مَخلوقَين مِن غيرِ شَيءٍ أعجَبَ مِن خَلقِهِ فهو أدَلُّ عَلى القُدرَةِ، وكانَ خَلقُ الأرضِ الَّتي هي كالأُنثى مُتَقَدِّمًا على عَكسِ ما كانَ في الإنسانِ، أتبَعَهُ ذِكرَهُما بادِئًا بِما هو كالذَّكرِ، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ولـمّا بيّن اللّهُ سبحانه فيما سبق دلائلَ الأنفسِ، أتبعها بما هو مِن صفات الأنفس في قوله: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱخْتِلَٰفُ﴾: أصلُ (خلف) مِنَ الإخْلافِ، وهو: مجيءُ شَيءٍ بَعْدَ شَيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[2]، فالخَلَفُ: المُتَأخِّرُ، سواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[3]، وأمّا قَوْلُهُمُ: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ، أي: مُخْتَلِفونَ، فمِنَ هذا البابِ؛ لِأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِهِ، ويُقيمُ نَفْسَهُ مُقامَ الَّذي نَحّاهُ[4]، والاختلافُ (افْتِعالٌ) أُريدَ به شِدَّةُ التَّخالُفِ، ولا يُعرَفُ لِمادَّةِ هذا المعنى فِعلٌ مُجَرَّدٌ، وزيادَةُ التّاءِ لِلمُبالَغَةِ، مِثْلُ: (اكْتَسَبَ) مُبالَغَةً في (كَسَبَ)[5]، وحقيقةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 92، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 69.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 282.

الاختلاف في الآية: اختلافُ اللُّغاتِ، أي: اختلافُ لغاتكم مع أنّ أصلَكم واحدٌ[1].

2) ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾: (علم) أصلٌ يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتميَّزُ به عن غيره، ومن ذلك العَلامَةُ، وهي معروفةٌ، يُقالُ: عَلَّمْتُ على الشَّيءِ علامةً[2]، والعِلْمُ: نقيضُ الجَهْلِ، وقياسُه قياسُ العلامَةِ[3]، وعَلِم عِلْمًا وعَلُمَ هو نَفْسُه، ورَجُلٌ عالِمٌ وعليمٌ من قومٍ عُلماءَ فيهما جَميعًا[4]، والعالمُ في وصف اللّه: هو الّذي لا يخفى عليه شيءٌ، كما قال سبحانه: ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: 18]، وذلك لا يصِحُّ إلّا في وصفه تعالى[5]، والمُرادُ بـ(العالمين) في الآية: جمعُ عالمٍ، أي: هذه الآياتُ للعُلَماءِ، لأنَّ العالِمَ أقرَبُ إلى الاعتبارِ مِن الجاهِلِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العالِمون هم أهل الفقه والتّدبُّر

ومِنَ العَلاماتِ الدّالَّةِ على توحيدِ اللّهِ، وكَمالِ قُدرتِه العظيمةِ، وغيرِ ذلك: خَلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما فيهنّ مِن عجائبِ الإبداعِ وروائعِ الجمالِ، وبقاؤهنّ في الفضاءِ بعجيبِ قدرته وعظيمِ عِلْمِه وحكمته، ومن دلائلِ ربوبيَّته أيضًا: اختِلافُ لُغاتِ البشرِ اختلافًا لا حدَّ له، كما هو معلومٌ مِن واقعِ العالَمِ، فمَنِ اطَّلع على لغاته رأى مِنِ اختلافِ تراكيبها، وتعدُّدِ اشتقاقاتها، وتنوُّعِ أساليبها، عجائبَ وغرائبَ لا يَعلم حصرَها إلّا خالِقُ اللّغاتِ سبحانه، وكذلك اختلافُ ألوانِ الأجسادِ من البياضِ والسّوادِ والحمرةِ والصّفرةِ إلى غيرِ ذلك من الألوان، مع أنَّ أصلَ البشرِ واحدٌ؛ وكُلُّ هذه المعاني لا يُدركها إلّا أهلُ النّظرِ والاستدلالِ، لأنّها أدِلَّةٌ لأولي

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 36.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(5) الرّاغب، المفردات: (علم).

العِلم، يستدلّون بها على وحدانيَّةِ اللّه تعالى وقُدرته على إعادةِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما قبله من الآيات بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران، حيثُ ضُمَّنت الآيةَ الثّالثةَ من دلائل وجوده سبحانه، وبراهين قدرته على البعث والنشور، آيةَ خَلْقِ السّماوات والأرض بمجموعها وسُكّانها، وهي آيةٌ عظيمةٌ مشهودةٌ، أظهرُ قدرةً على إعادة ما كان حيًّا قبل ذلك[2].

إضافة آيات أخرى مع ما سبق للدّلالة على وحدانيَّته وقُدرته على البعث والنّشور

دلالةُ التّعبير بـ(مِن) في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

ورد التّعبيرُ بحرف الجرّ (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومعناه التّبعيض[3]، الذي يدلُّ على أنَّ هذه الآيةَ بعضٌ مِن الآيات السّتّ الدّالّة على ما ذُكِرَ من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء، والحكمة في ذِكْر تلك الآيات ليُهتَدَى بها[4].

بعض الآياتِ كافٍ في الدّلالة على وقوع البعث

دلالة تكرار هذا الأسلوب ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

فائدة تكرار هذا الأسلوب ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الإشعارُ بأنّ كلَّ واحدةٍ منها آيةٌ خارجةٌ من جنس الآيات، مستقلّةٌ بشأنها، مقصودةٌ بذاتها[5].

دلالةُ التّعبير بـ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ وسِرُّ جمعها:

آثرَ القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ (آيات) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دون غيرها كـ(دلائل)؛ وذلك

كثرةُ الأدلّة الواضحة والبراهين السّاطعة الدّالّة على الوحدانيّة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 479، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 9، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 41.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 103.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 333.

(4) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 203.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 31.

لوجود فرْقٍ بينهما مِن ناحية العموم والخصوص، فالآياتُ أعَمُّ مِن الدَّلائل، وذلك لأنَّها تُطلَقُ على الآية القرآنيّة، وعلى الشّيء العجيب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: 50]، فالمراد بها هنا: الأدلّة الواضحة، والبراهين السّاطعة، الدّالّة على وحدانيّة الله تعالى وقدرته[1]، وتتميَّز (الآياتُ) بكونها علاماتٍ ظاهرةً تكون سببًا لإدراك أمرٍ آخَرَ لا يتمّ إدراكُه إلّا بوجودها، في حين أنّ الدّلائل تُفيد الظّنّ، وقد تكون واضحةً وقد لا تكون[2]، والسّرُّ في جمعها دون الإفراد (آية): الدّلالةُ على كثرة آيات الله سبحانه، الدّالَّة على وحدانيّته، والمذكورُ في هذا السّياق بعضُها فقط.

دلالةُ الإضافة في ﴿ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

تعظيمُ قَدْرِ الآيات وتشريفُ منزلتِها

أُضيفت الآياتُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى الضَّمير العائد على الله ﷻ، باعتباره مصدرُها سبحانه وتعالى، والنُّكْتَةُ في هذه الإضافة تعظيمُ قَدْر هذه الآيات وتشريفُ منزلتِها، فإنّ إضافة الأعيان إلى الله تشريفٌ لها، كبيت الله، وناقة الله، وغيرهما[3].

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾:

الاهتمامُ بآيات الله سبحانه، والتّنويه بشأنها

تَقَدَّم الجارُّ والمجرور ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ للاهتمام بآيات الله سبحانه والتّنويه بشأنها، وذلك لأنّ السّياق القرآنيَّ هو في الاستدلال على وحدانيّة الله ﷻ وقدرته على البعث.

دلالة التّعبير بالخَلْق مصدرًا دون الفعل:

إفادةُ ثبوتِ السّماوات على علوّها، والأرض على اتّساعها

أوثِرَ استعمالُ المصدر ﴿خَلْقُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دونَ استعمال الفعل (خَلَقَ)، كما في

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 75.
(2) الرّاغب، المفردات: (أي)، والعسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 97.
(3) ابن أبي العزّ، شرح الطّحاويّة، ص: 129.

الآيات السّابقة؛ لإفادة المصدر الثّبوتَ، فإنّه لمّا كان منَ العجب إيجادُ الخافِقَين من العدم، إيجادًا مستمرًّا على حالةٍ واحدةٍ، عبّر بالمصدر، فقال: ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على علوِّها وإحكامها، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ على اتّساعها وإتقانها[1]، وقد جمع المصدرُ ﴿خَلۡقُ﴾ جميعَ ما فيه عبرةٌ مِن مخلوقاتِ السّماوات والأرض، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ مخلوقٍ منها أو فيها هو آيةٌ وعِظَةٌ.

دلالةُ البَدءِ بخَلْق السّماوات والأرض:

ظهور الاستدلال بالسّماوات الأرض

بدأ اللّهُ سبحانه وتعالى هذه الآيةَ بخَلْقِ السّماوات والأرض، قبلَ الحديث عنِ اختلاف الألسنة والألوان؛ لظهور الاستدلال بهما على الوحدانيَّة، مِن باب الاستدلال بالأثَر على المؤثر، والصَّنعة على الصّانع، وفيه تعليمٌ لطريق النّظر فيما ينظرون فيه أوّلًا.

دلالةُ العطف في ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾:

استدلال آية اختلاف الألسنة والألوان لأهمّيّتها

عُطف قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ على خَلْقِ السّماوات والأرض بحرف الواو الدّالِّ على الجمع، حيثُ أدرجَ النّظمُ القرآنيُّ اختلافَ الألسنةِ والألوان في سلك الآيات الآفاقيَّة مِن خَلْقِ السّماوات والأرض، مع كونه منَ الآيات الأنفُسيَّة الحقيقةِ بالانتظام في سلك ما سَبَق مِن خَلْقِ أنفُسِهم وأزواجهم؛ للإيذان باستقلاله والاحتراز عن توهّم كونه من متمِّمات خَلْقِهم[2].

بلاغة المجاز في ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾:

شيوع التّعبير بالألسنة على اللّغات

تضمّن قولُه تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ﴾ مجازًا مُرسلًا في التّعبير بالألسنة عن اللّغات، والعلاقة الآليّة، بمعنى: تسمية الشّيء باسم آلته[3]، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 69.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.
(3) الدّسوقيّ، الحاشية على مختصر المعاني: 3/ 274.

قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: 4]، فمِن آيات الله اخْتِلافُ الألسنة، أي: اللّغات، بأنْ عَلَّم سبحانه كلَّ صِنفٍ لُغَتَه، أو ألهمَه ﷻ وضْعَها وأقدره عليها، فصار بعضٌ يتكلَّم بالعربيَّة، وبعضٌ بالفارسيَّة، وبعضٌ بالرّوميَّة، إلى غير ذلك ممّا اللّهُ تعالى أعلمُ بِكمّيَّته[1]، وجوّز بعضُ العلماء أن يُراد بالألسنة أجناسُ النّطق وأشكالُه، فقد خالف عزّ وعلا بين هذه الأشياء حتّى لا تكاد تسمع منطِقَين مُتَّفِقَين في همسٍ واحد، ولا جهارةٍ، ولا حِدّةٍ، ولا رخاوةٍ، ولا فصاحةٍ، ولا لُكنةٍ، ولا نَظم، ولا أُسلوبٍ، ولا غيرِ ذلك مِن صفات النّطق وأحواله[2]، فأصواتُ المُتكلِّمين متميّزةٌ بعضُها مِن بعض، وإن كانت بِلُغَةٍ واحدةٍ، فتقول: هذا صوت فلانٍ دون فلانٍ، مِن غير أن تراه.

لطيفة جمع ﴿أَلْسِنَتِكُمْ﴾:

كـثرةُ اللّـغات وتنوّعُ الأصوات

جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ لفظُ ﴿أَلْسِنَتِكُمْ﴾ جمعًا، وهو مُشعِرٌ بكثرة الألسنة سواءً قُصد بها اللُّغاتُ - على المشهور - فإنّ عدَدَ اللّغاتِ مِمّا لا يَعلَم حَصْرَه إلّا خالِقُ اللُّغات، أو الأصوات، فهي كثيرةٌ جدًّا ومتنوّعةٌ[3].

دلالة العطف في ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾:

اختلاف الألوان من دلائل القدرة الإلَهيّة

عُطِفَ اختلافُ الألوانِ على اختلاف الألسنة في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ بحرف الواو الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّ الاختلاف والتّنوّع في الألوان مع كون الأبِ واحدًا والأُمِّ واحدةً مِن أعظم دلائل القدرة الإلَهيّة، فإنَّ البشر منحدِرٌ مِن أصلٍ واحدٍ، وهو آدَمُ عليه السلام، وله لَونٌ واحِدٌ لا محالةَ، فلمّا تعدَّدَ نسلُه جاءت الألوانُ المُختلِفَةُ في بشراتهم.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 32.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 473.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 22/ 104.

دلالةُ التّعبير بـ(الألوان) وجمعِها:

تمـيُّزُ النّـاسِ في الألـوان والأشكال لِدَفعِ الالتباس

عُبِّرَ بلفظ ﴿وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾، والمقصودُ به اختلافُ لَونِ البَشَرة مِن البَياض والسَّواد والحُمرة والصُّفرة والأُدمة، مَع كَونِهم أولادَ رَجُلٍ واحِدٍ وأُمٍّ واحِدَةٍ، وله لونٌ واحِدٌ لا مَحالةَ، فلَمّا تَعَدَّد نسلُه جاءت الألوان المختلفةُ في بشراتهم، ويَدْخُلُ في اختلاف الألوانِ اختلافُ الأشكال والصُّوَر، فصار النّاسُ متميّزين في ذاتِ بينهم، لا يلتبس هذا بهذا، بل في كُلِّ فردٍ من أفرادهم ما يميّزه عن غيره منَ الأفراد، ولولا ذلك الاختلافُ لوقع الالتباس، وتعطّلت مصالحُ كثيرةٌ مِن المعاملات وغيرها، وفي هذا من بديع القدرة، وعجيب الحكمة[1].

نُكْتَةُ الجَمعِ بين ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ و﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾:

اختلافُ الألسنة والألوان من آثار خلق السّماوات والأرض

جُمع بين خلق السّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ﴾ لوجود المناسبة بينهما، فلهذه الأحوال المختلفة لهذا النّوع الواحد أسبابُ اختلافها مِن آثار خلق السّماوات والأرض، فاختلاف الألسنة سببُه القرار بأوطانٍ مختلفةٍ متباعِدةٍ، واختلافُ الألوان سببُه اختلافُ الجهات المسكونة مِن الأرض، واختلافُ مَسامتة أشعّة الشّمس لها، فهي مِن آثار خَلْقِ السماواتِ والأرضِ، وبهذا رُجّح أنّ المقصودَ هو آيةُ اختلاف اللّغات والألوان، وأنّ ما تقدَّمه مِن خلق السّماوات والأرض تمهيدٌ له، وإيماءٌ إلى انطواء أسباب الاختلاف في أسرار خلق السّماوات والأرض[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 73، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 73.

عِلَّةُ فصْل جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾:

اختلاف الألسنة والألوان من الآيات الدّالّة على بديع القدرة

فُصل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ عن صدر الآية على سبيل الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه خرج مخرج التّذييل لِما سبق، وفائدة التّذييل غالبًا توكيدُ المُذيَّل، وإبرازُ حُكمه في صورةٍ كُلّيّة[1]، فأكّد اللّهُ سبحانه أنّ ما ذكره مِن خَلْقِ السَّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان، آياتٌ دالّةٌ على بديع القدرة، وعجيب الحكمة.

فائدة تتابع المؤكِّدات في الآية:

التّأكيد على عظَمة ما ذُكر من الآيات

تتابع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ عِدَّةُ مؤكِّداتٍ مِن التّأكيد بـ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة، وتقديم ما حقّه التّأخير، ولام التّأكيد، وكلُّها مِن مؤكّدات مضمون جملة الإسناد، وقد جاء الخبر على الضّرب الإنكاريِّ؛ مبالغةً في التّأكيد على عظَمة ما ذُكر من الآيات الجليلة.

دلالة التّعبير بـ﴿فِي﴾ في ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾:

اشتمالُ الآياتِ على دلائل القدرة

عبَّر القرآنُ الكريم بحرف الجرّ ﴿فِي﴾، الدّالِّ على الظّرفيَّة في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾؛ لشمول هذه الآية الكريمة على آياتٍ عظيمةٍ ودلائلَ باهرةٍ على عظَمة اللّه سبحانه وقدرته على التّنويع في خَلْقه، وللإشارة إلى تمكُّن صفة العظَمة والانبهار في كلِّ جُزءٍ مِن أجزاء هذه الآيات، فكأنَّها أحاطت بها إحاطةَ الظَّرف بالمظروف.

بلاغةُ التّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

استعارة البُعد المكانيّ للبُعد المعنويّ في المنزلة

أُشيرَ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ إلى ما تقدّم ذِكْرُه مِن خَلْقِ السّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾، وما فيه مِن معنى البُعد، مع قُرب العهد

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

بالمشار إليه؛ للإشعار ببُعد منزلته، فهي آياتٌ عظيمةٌ لا يُكتَنَهُ كُنْهُها ولا يُقادَرُ قَدْرُها[1].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

العناية والاهتمام بالآيات الباهرة

تَقدّمَ الجارُّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ على اسم (إنّ) وهو ﴿لَآيَاتٍ﴾؛ لنُكْتَة الاهتمام بما سبق ذِكْرُه في الآية الكريمة مِن أدلّةٍ واضحةٍ وبراهينَ ساطعةٍ، دالّةٍ على وحدانيَّة الخالِق، وعظيم قدرته.

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَآيَاتٍ﴾:

زُحْلِقَتِ اللّامُ كراهةَ اجتماع مؤكِّدَين في مَحلٍّ واحد

اتّصل حرفُ (اللّام) في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ بلفظ ﴿لَآيَاتٍ﴾، وهي لام الابتداء، وغرضُها التّوكيد، والأصل أن تقع قبل (إنَّ)، لكن كَرِهَ العربُ أن يجتمع مؤكّدان في محلٍّ واحِدٍ - كما يقول النّحويّون - فزحلقوا اللّامَ عَن موضعها.

دلالةُ جمعِ ﴿لَآيَاتٍ﴾:

اشتمالُ الآية القرآنيّة على عدّة آيات كونيّة وأنفسيّة

جُمِعَ لفظُ ﴿لَآيَاتٍ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾؛ للدّلالة على كثرة الآيات المودَعة في خَلْقِه سبحانه، للسّماوات المُزدانة بالكواكب، والنّجوم الثّوابت والسّيّارة، والسّماوات الواسعة الأرجاء، وخَلْقِ الأرض ذاتِ الجبال والوديان والبِحار والقِفار والحيوانِ والأشجار، فإنّ في خَلْق هذه الأجرام العظيمة، الّتي هي أجرامُ السّماوات والأرض، وجَعْلِها باقيةً ما دامت هذه الدّارُ، وخلْقِ ما فيها مِن عجائب الصّنع، وغرائب التّكوين، واختلافِ الألسنة والألوان، عبرةٌ للمعتبِرين[2].

دلالة تنكير ﴿لَآيَاتٍ﴾:

آياتُ اللهِ عظيمةٌ في نفسها، كثيرةٌ في عددها

جاء لفظ ﴿لَآيَاتٍ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 56.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 71، والهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 102.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على العَظَمة في نفسها، والكثرة في عددها، فهي آياتٌ عظيمةٌ، ودلائلُ باهرةٌ على عظَمة الله سبحانه وقدرته على البعث والنّشور، وهي آياتٌ كثيرةٌ باعتبار اشتمال ذلك الخَلْق على دقائقَ كثيرةٍ متولّدٍ بعضُها عن بعض، يُظهرها التّأمّلُ والتّدبّرُ، بحيثُ يتجمّع منها آياتٌ كثيرةٌ[1].

دلالة (اللّام) في قوله: ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾:

تعليلُ انتفاعِ العالِمين بالآيات

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بحرف اللّام مِن لفظ ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لتعدُّدِ معانيها؛ فمنها: أنّها للتّعليل، أي: لأجل قوم يتفكّرون، وهي اللّام المبيِّنةُ سببَ الفعل الذي قبلها، فهي بمعنى (كي) أو (لأجل)، ولهذا سمّيت (لام الأجْل)[2]، ويجوز أن يكون معناها شبهَ التّمليك، فهي واسطةٌ بين معنى التّمليك ومعنى التّعليل، ومثّل له ابنُ هشامٍ في المغني بقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النّحل: 72]، وذُكِرَ في المعنى العشرين من معاني اللّام أنّ ابن مالك في (كافيته) سمّاه لام التّعدية[3].

أثَرُ توجيه القراءات في ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾:

انتفاعُ الخلائق عامّةً، والعلماءِ خاصّةً

اختلف القُرّاء في لفظة ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ فقرأ الجمهور ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللّام، وقرأ حفصٌ وحدَه بكسر اللّام ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[4]، فعلى قراءة الجمهور ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللّام يكون اسمَ جَمْعٍ لـ(عالَم)، والمراد بالعالَمين: أصنافُ الخلائق[5]، والمعنى: أنّه سبحانه جعل خَلْقَ السّماوات والأرض واختلافَ الألسنة والألوان آياتٍ واضِحةً لعموم النّاس، يُمكنهم الشّعورُ بها دون إمعانِ نَظرٍ؛ لِعَدَم خفائها على أحدٍ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 72.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 344.
(5) العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 1/ 42.

مِنَ الخَلْق كافّة[1]، وعلى قراءة حفصٍ ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللّام يكون جمع (عالِم)، إذِ المنتفعُ بتلك الآيات العظيمة إنّما هم أهلُ العِلْم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: 43][2].

سرُّ التّعبير بجمع (العالَمين) دونَ (العوالِم):

جـمـعُ المُـذكّـر السّالم للعَلَم والـوصـف، وما سواه ملحَق

جاء التّعبيرُ بجمع (العالَمين) على قراءة الجمهور في قوله تعالى: (إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ للعالَمين) بفتح اللّام جَمْع (عالَم)، والأصل أن يُجمع (عالَمٌ) عَلَى (عَوالِمَ)، ولا يُجمع جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالِمًا، فإذا أُجريت مُجرى جمعِ المذكّر السّالم في الإعراب كانت مُلحقةً به، وليست جمعًا على الحقيقة، وإنّما لم تُعدَّ كلمةُ (العالَمين) جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالِمًا حقيقةً؛ لأنّ مفردها - وهو عالَم - فقَدَ شرطَ جَمْعِه هذا الجمع، إذ إنّه ليس عَلَما ولا وصفًا، وإنّما هو من أسماء الأجناس[3].

والسّببُ المُسَوِّغُ لجمع هذه الكلمةِ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالِمًا (العالَمين) ثلاثةُ أشياء:

أحدُها: ما في كلمة (العالَم) مِنْ معنى الوَصْفيَّة، إذْ هو دالٌّ على معنى العِلْم أو العَلامَة.

ثانيها: أنّه عُدِلَ إلى (العالَمين)؛ تَغْليبًا للعقلاء على غَيْرِهم، وأوْمَأ إلى هذا البيضاويُّ؛ فقد قال: "وإنّما جمعه ليشملَ ما تحته من الأجناس المختلفة، وغَلَّب العقلاءَ منهم، فجمعه بالياء والنّون"[4].

ثالثها: أنّ فيه عدولًا عن جمع الكثرة إلى جمع القلّة؛ تنبيهًا على أنّهم وإنْ كَثُروا فهم قليلون في جانب عظمته تعالى وكِبْريائِه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 75.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 382.
(3) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 1/ 60 - 61.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 28.
(5) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 1/ 57.

نُكْتَةُ حَذفِ مُتعلّق العِلم:

شرف العِلْم في حَدّ ذاته

حُذِفَ مُتعلَّقُ اسم الفاعل المجموع ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لتشريف العِلم في حدّ ذاته، من غير أن يقصد النّصُّ على معلوم مُعَيَّن[1]، ونظيره قولُه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزّمر: 9]، ومثال ذلك من كلام النّاس: "فلانٌ يحلّ ويعقد، ويأمر وينهى، ويَضُرّ وينفع"، وكقولهم: "هو يعطي ويجزل، ويقري ويُضيف"، والمعنى في جميع ذلك على إثبات المعنى في نفسه للشّيء على الإطلاق وعلى الجملة، من غير أن يُتَعرَّض لحديث المفعول، حتّى كأنّك قلت: "صار إليه الحلُّ والعقد، وصار بحيثُ يكون منه حلٌّ وعقد، وأمرٌ ونهيٌ، وضُرٌّ ونفع"، وعلى هذا القياس[2].

بلاغة تذييل الآية:

تخصيص العالِمين بمعرفة الآياتِ دون الجاهلين

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ على سبيل التّذييل لما سبق، فما سبق ذِكرُه مِن خَلْق السّماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لَآياتٌ عظيمة، ودلائلُ واضحة، كثيرةٌ عددها، ﴿لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ بكسر اللّام؛ أي: لأولي العِلْم، الّذين يفكّرون فيما خلقَ اللّه تعالى، فيعلمون أنّه سبحانه لم يخلقِ الخلقَ عبثًا، بل خَلَقَه لِحكمةٍ بالغة، فيها عبرةٌ لِمَن تذكّر؛ وخصّ العلماءَ لأنّهم أهلُ النّظرِ والاستدلال، دونَ الجهّال المشغولين بحطام الدّنيا وزخارفها، فلمّا كان الوصول إلى معرفة ما سبق ذكرُه إنّما يمكن بالعِلْم، ختم الآية بـ(العالِمين)، وكذلك يُقال على قراءة الفتح: (لِلْعالَمينَ) بأنّ هذه الآيات في غاية الوضوح، فلا تخفى على أحدٍ مِن الخَلْق، مِن مَلَك وإنسٍ وجِنٍّ وغيرِهم؛ لأنّ الكُلَّ تظلّهمُ السّماء، وتقلّهم الأرض، وكلٌّ

(1) الخطيب القزوينيّ، التّلخيص في وجوه البلاغة، ص: 127.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

منهم متميّزٌ بلطيفةٍ يمتاز بها عن غيره، وهذا يشترك فيه جميع العالَمين، فختم الآية به[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاختلاف والتّفاوُت:

التّفاوت اختلافٌ خـاصٌّ يقتضي الـبُـعـدَ بين شيئين

يختلف لفظا (الاختلاف) و(التّفاوت) في علاقة العموم والخصوص بينهما، فالاختلاف عامٌّ في عدم الاتّفاق[2]، و(التّفاوت) اختلافٌ خاصٌّ يقتضي الفَوْتَ وهو البُعد[3]، ويُطلق على الاختلاف في الأوصاف كأنّه يفوت وصْفُ أحدِهما الآخرَ، أو وصْفُ كُلِّ واحدٍ منهما الآخرَ، كما يختلفان في معنى الصّيغة الصّرفيَّة منهما، فالاختلاف (افتعالٌ) مِن (خلف) يقتضي المبالغة، أمّا التّفاوت فهو (تفاعلٌ) من شِدَّة الفَوْتِ، أي: البُعد، وليست صيغةُ التّفاعل فيه لحصول فِعْلٍ مِن جانِبَين، ولكنَّها مفيدةٌ للمبالغة أيضًا، ومن الفروق أيضًا أنّ الاختلاف معنًى حقيقيٌّ في عدم التّوافق، أمّا التّفاوت فهو معنًى مجازيٌّ، إذ هو مستعارٌ للتّخالف وانعدامِ التّناسق؛ لأنّ عدمَ المناسبة يُشبه البُعد بين الشّيئين، تشبيهَ معقولٍ بمحسوس[4].

كما يتميّز (الاختلاف) عن (التّفاوت) في كونه أوسعَ دلالةً وأكثرَ استعمالًا، فمادَّةُ (خلف) كثيرةُ الاستعمال في القرآن الكريم، ولم يَرِد لفظُ التّفاوت إلّا في قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ﴾ [الملك: 3]، والاختلاف أوسعُ معنًى منَ التّفاوت، فقد يَرِد الاختلافُ في سياقٍ غير مذمومٍ، كالاختلاف في الألوان، كقوله

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوْح والرَّيحان: 22/ 105، ومجير الدّين العُلَيْميّ، فتح الرَّحمن في تفسير القرآن: 5/ 280.
(2) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(3) الرّاغب، المفردات: (فوت).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 17.

تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ [النّحل: 13]، والاختلاف في الظّواهر الكونيَّة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: 190]، وغير ذلك من موارد الاختلاف الدّالّ على التّنوّع، ومنها هذه الآية.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والأربعون،
سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 43 ، 816 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-94-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 43 : المجلد الثالث والأربعون، سورة الرّوم من الآية 08 إلى سورة لقمان الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-94-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9381682 بتاريخ 2024/12/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»